الفصل الخامس

كيفية انتقال الحضارة الإسلامية إلى الأسبان

إنه حقاً لمن الأهمية بمكان أن يُطرح هذا السؤال حول الكيفية التي انحدرت بها حضارة المغاربة الفاتحين في بلاد الأندلس من أوْج مجدها لتتلقى الهزيمة على أيدي مقاتلي الشمال المسيحيين الأقوياء والذين اشتغلوا لعدة قرون في حِرَفهم، ولم يكن لهم أي سابق صلة بالقتال، وفي الحقيقة، فإن الأسباب التي أدت إلى تقويض الحضارة الإسلامية في بغداد هي نفسها التي فعلت بأسبانيا الأفاعيل.

وهلُم بنا- أيها القاريء الكريم- لنستعرض هذه الأسباب والتي تمت مناقشتها بالفعل في الفصل السابق والتي تتمثل في الآتي: سجية العربي المستقلة في اتخاذ القرار وعدم مقدرته على تقديم الولاء إلا للقرآن ولله، وتقويض شخصية الحكام ووهن قوتهم نتيجة لنظام الزوجات والسراري الذي شرعوه؛ وهذا النظام الذي لم يسمح لهم الانغماس في الشهوات والملذات الحسية فحسب، بل وشجعهم على

obeikan.com

إتيانها والانهماك فيها أيضًا، والوَهَن الذي لحق بهم نتيجة لمناخ الأندلس البهيج اللطيف، والإغواءات الكثيرة التي كانت من الخطر بمكان بحيث إنها صدَّت عن الإبقاء على الشخصية ذات الخلق المفعمة بالطاقة، كما أن السخط المتزايد من جانب المسيحيين والذين كانوا يمثلون نسيجًا ضخمًا من تعداد السكان في البلاد نتيجة لشعورهم بالدُّونية الناجمة من معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية في ظل الخلافة جنبًا إلى جنبٍ مع التعسف في فرض الضرائب قد قضى تدريجيًا على أي ولاء قد كان المسيحيون في البلاد أظهروه آنفًا للحكام المسلمين.

وفي هذه الحرب الضروس التي دارت رحاها في عام 1212م في العقب بالقرب من قرطبة، كما ذكرنا سابقًا، هُزِم المسلمون شر هزيمة على يد قوات ألفونسو حاكم قشتالة والذي كان على رأس جيش متحمس من المسيحيين الذين تجمعوا من أراجون ونفار والبرتغال وفرنسا، ومما هو جدير بالذكر أن ألف جندي فقط من آلالاف الجنود المغاربة هم الذين نكصوا على أعقابهم، وعلى الرغم من هذه المعركة قد أرخت بالفعل لنهاية سيادة المسلمين السياسية على أسبانيا إلا أن تأثير المغاربة الفاتحين لم يُعدم بالمرة في بعض نواحي الحياة في أسبانيا، بل إنه استمر في البلاد زِهاء الثلاثة قرون.

ولكن، لماذا لم يقم ألفونسو بتطهير البلاد كلية من أثر هذه الحضارة وطرد المغاربة عن بَكْرة أبيهم من أسبانيا؟ لعل الإجابة تكمن في أن ألفونسو كان أكثر

استعدادًا لتحقيق نصر عسكريّ منه لإدارة شؤون البلاد. ويشهد التاريخ أن ألفونسو قد قام بالفعل بتقسيم أسبانيا على عدد من الحكام المسيحيين ضيّقي الأفق وعلى أبناء السلالة الحاكمة من المسلمين والتي بقت في البلاد، بل وعملت على تعزيز الحضارة الإسلامية.

والأمر الذي يثير الدهشة والاستغراب هو أنه بينما كان نجم الحضارة الإسلامية آخذًا في الأُفُول على المستوى السياسي، فإن التأثير البالغ لهذه الحضارة قد امتدت يده لتصل إلى الحضارة الأسبانية وكل الحضارة الأوروبية تباعًا، إذ بمجرد إشباع رغبتهم المُتَّقدة في استرداد بلادهم من أيدي الكفار، فإن الغُزاة الأسبان وعلى غير العادة قد تخلوا عن الكثير من عدائيتهم وتشددهم تجاه المسلمين لدرجة أنهم قد عاشوا جنبًا إلى جنبٍ مع المسلمين، بل وانخرطوا إلى حد بالغ مع المغاربة الفاتحين في كَدِّ الحياة اليومي والإنتاج.

لقد بُنِيت هذه الصداقة بين المغاربة والغزاة الأسبان على سببٍ عمليّ يتمثل في أن المسيحيين كانوا في أمس الحاجة إلى هؤلاء المسلمين الفاتحين لكي يتعلموا منهم فنون المعيشة والتي تطورت على أيدي المسلمين على مر القرون، إذ أن هؤلاء الغزاة الأسبان لم يكن لهم بأي حال من الأحوال أن يعلموا أي شيء عن التكنولوجيا التي كانت في أيدي المغاربة الفاتحين بدون أن يتعلموها مباشرةً على أيديهم لفترة ممتدة من الزمان.

لقد كان المسيحيون في حاجة إلى المغاربة لكي يتلقوا على أيديهم كيفية تربية دودة القز (دودة الحرير) وحياكة الحرير وغيره من الأنسجة الأخرى إلى جانب حاجتهم إلى تعلم فنون صناعة الخزف وتكنولوجيا المعادن؛ هذا كله بالإضافة إلى أنهم كانوا في حاجة مسيسة إلى النجارين والبنائين من المغاربة لكي يتعلموا على أيديهم فن البناء والتشييد؛ وعلاوة على هذا كله، فإنهم كانوا في أمَسّ الحاجة إلى جميع المزارعين المغاربة لكي يُعَلموهم أنظمة الري وزراعة البساتين وتحسين سلالات الحبوب الزراعية.

ومن ثَم، فقد استمر المغاربة الفاتحون في العيش بسلام جنبًا إلى جنبٍ مع المسيحيين لمدة تربُو على القرنين والنصف من الزمان، وهي الفترة التي كانت تحمل في طياتها الكثير من التقدم للأسبان، وفي الحقيقة، فإن مثل هذا التعايش بين المسيحيين والمسلمين لم تشهدْه الأنظار من قبل؛ ولم تشهده مرة ثانية مذ ذلك الحين، لقد كانت تلك الفترة بحقٍّ فترة تناغم في تاريخ البشر بكل ما تشير إليه الكلمة من دلائل، ولذا فإنها تستحق عناية أكثر من المؤرخين والكتاب الكلاسيكيين.

2

لقد ظلت مملكة المغاربة الفاتحين زهاء الثلاثة قرون المركز الذي ينبثق منه نور الحضارة الإسلامية في أسبانيا، حيث المناخ الرائع؛ فالضواحي خصبة، ومياه الري والاستحمام والشرب المتدفقة من الجداول والقنوات وفيرة، والهواء نفسه كان يفوح منه شَذَا العطر.

ولفترة من الزمان، أعاد الحكام مجد الخلافة السابقة في قرطبة هنا في غرناطة إذ أن الأخيرة قد أضحت أكثر المدن رخاءً في كل ربوع أسبانيا وذلك من خلال تشجيع التجارة، كما قام الخليفة الغالب بتشييد قصرٍ فخيمٍ زيَّنه بالزخارف وبالحلى المعمارية من الأرابيسك على سفح أكمة تقع على حدود المدينة، ولقد عُرِف هذا القصر فيما بعد باسم «قصر الحمراء»، وحتى يومنا هذا لايزال المسافرون يُولُونَه شطرهم في أسفارهم.

وكان الاهتمام الذي أولاه الحكام للفن والتعليم قد جذب العلماء إلى بلاطهم، ومما

هو جدير بالذكر أن اليهود قد سبق واستَوطَنوا هذه المدينة إذ كانت لهم حظوة عند الناس على الرغم من قلة عددهم وذلك نتيجة لإسهاماتهم الجليلة في علم وفن الطب، وعلاوةً على ذلك، فقد اندفع اللاجئون المسلمون إلى قرطبة جماعات وفُرادَى من بعض ربوع أسبانيا عندما وصل المسيحيون إلى سُدَّة حكمها، ومن ثم، فقد وصل تعداد السكان في المدينة نصف المليون نسمة.

وأضحت الآن كل المدن الرئيسية في أسبانيا تعج بخليطٍ من المواطنين مؤلف من الآتي:

(1)الغُزاة المسيحيين الذين جاءوا من شمال أسبانيا؛ (2) مسيحيّي الأندلس والذين لم يبْرحوا ديانتهم بيْد أن حياتهم طُبعت بطابع المسلمين كونهم ارتدوا ثياب المسلمين وتحدثوا وقرءوا العربية؛ (3) المسلمين الذين انحدروا من عائلات مسيحية غير أنهم ما فتئوا أن عادوا إلى دين آبائهم الأوليين فأصبحوا مسيحيين؛ (4) المسلمين الذين انحدروا من أصول مسيحية بيْد أنهم قد ظلوا على إسلامهم؛ (5) المغاربة الفاتحين الذي ينتمي سوادهم الأعظم للبربر في حين أن بعضهم به أثارة من دم عربي، وكانوا مسلمين راسخين ومتحمسين؛ (6) اليهود والذين كان لهم دورٌ رائدٌ في تقدم الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس.

يا لَه إذن من خليط من الأجناس والديانات! لقد كان حقًا مزيجًا غنيًا ومناسبًا لإحداث التقدم، فالطبقة المسيحية الحاكمة والتي قد ولَّت ظهورها للقلاع المظلمة

والأكناف البدائية في شمال أسبانيا القاحل ما لبثت عن طيب خاطر أن اتخذت حياة المسلمين الأكثر رقة نسقًا لها؛ تمامًا كما قد تعوّد المغول الذين غزو الصين بصورة تدريجية على مزايا الحياة الصينية، والحق يُقال أنه قد حدث تناغم بين كل طوائف قرطبة حتى أن الحياة المدنية قد أضفت شيئًا من التحسُّن على حياة القشتاليين وذلك نتيجة لتأثير حضارة المغاربة الفاتحين الواقع عليها.

obeikan.com

obeikan.com

3

لقد كان من أثر هذا الترابط الحميم بين كل من المسيحيين والمسلمين في كل من أسبانيا وصقيلية أن نُقلت لأوروبا المعرفة والأدوات التي تقوم بها الحضارة والتي كان لزامًا على أوروبا أن تقتبسها، تمامًا كما فعل المسلمون من ذي قبل عندما اقتبسوا وطوروا حضارة العالم الكلاسيكي القديم لمدة خمسة قرون من الزمان.

وفي هذا الصدد، يقول سلفادور دي مادرياجا، الكاتب والفيلسوف الأسباني ذو العقلية المتحررة والذي يعيش الآن في المنفى «أن الحضارة الوحيدة التي وُجدت في الغرب منذ القرن التاسع وحتى القرن الحادي عشر كانت حضارة ذات طابع إسلامي»، ويستتبع دي مادرياجا حديثه قائلاً «في الوقت الذي كان فيه الإسلام يضيء أرجاء بغداد وقرطبة بأنوار العلم والفن والسياسة والثقافة ودماسة الأخلاق، كانت المسيحية تتخبط في غياهب الظلمات إذ أنه في خلال هذه الفترة من الزمن قد قُسِّمت منطقة أسبانيا الشمالية والتي كانت على الديانة المسيحية إلى ممالك صغيرة غير متحضرة حتى أن خليفة قرطبة ذا الشأو والعقلية الواعية كان ينظر

obeikan.com

إليها بازدراء واستعلاء، تمامًا مثلما حدث بعد ذلك بزمن طويل مع الفرنسيين الذين نظروا بشيء من الأنفة إلى القبائل المغربية المتفسخة التي انحدرت من سلالة المغاربة الفاتحين:

«لقد قدمت أسبانيا للعالم الفلاسفة وعلماء الفلك والرياضيات والمتصوفة والزُّهاد والشعراء والمؤرخين، ومما هو جدير بالذكر هنا أنه في أحد أصغر الأفنية في الأندلس كان يوجد خمسة آلالاف نُولٍ تُستخدم في حياكة كل أنواع الأقمشة بدءً من القماش المقصب الحرير وانتهاءً بالصوف والقطن، وعلاوة على هذا، فإن مكتبة رئيس الوزراء في دُوَيلة أخرى كانت زاخرة ب 400،000 ألف كتاب في وقت كانت فيه أشهر المكتبات المسيحية في أسبانيا قاطبة، وهي المكتبة الكائنة في دير ربول، تتباهى بامتلاكها 192 كتابًا (لاقيمة لها)[1]»

ولم يقتصر وقْع الأثر الذي أحدثَتْه حضارة المغاربة الفاتحين على أسبانيا وحدها، إذ أن المسيحيين قد ولُّوا وجوهَهُم شطر أسبانيا حينما كانت تحت راية المغاربة الفاتحين وذلك لتفقُّد المستشفيات والجامعات كي يتعملوا فيها من أجل أن يرجعُوا إلى بلدانهم محمَّلين بمعرفةٍ أعمق وأوسع في الطب والفلك والرياضيات؛ ومن حُسْن الطَّالع أن اختلاف الديانات لم يقف حائلاً بين تعلم هذه المجالات من العلم، ومن بين هؤلاء الذين أتَوْا إلى أسبانيا كان الراهبان ذائعِي الصيت والشهرة: جريجوري،

(١) سلفادور دي مادرياجا- «أسبانيا- تاريخ حديث».

قس سورموني، وأبيلارد، قس مدينة باث (بانجلترا).

أما على جانب الغُزاة الأسبان، فقد كانُوا في أمَسِّ الحاجة إلى كل ما تقدمه هذه الجامعات والمستشفيات الإسلامية، وكان انتشار الكتب قد أصبح أسهل من ذي قبل نتيجة لاختراع الورق؛ وهو الأمر الذي أحدث موجة من التعليم النشط الفعال.

وكانت الكتب بحق هي العنصر الأكثر أهمية في إيصال وقْع الحضارة الإسلامية إلى العالم المسيحيّ غير المتحضر في كل من أسبانيا وأوروبا، إذ أنه عندما تربَّع المسلمون على عرش البلاد، فإنهم قد جمعوا في مكتباتها ثروة الدهر من الأدب والعلم، وبفضل نشاط حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، جاء الوقت الذي نُقل فيه هذا الكنز من الفلسفة والمعرفة البشرية من أسبانيا لكل من إيطاليا وفرنسا؛ ومن ثّم، غرس بذور الحضارة الأوربية الحديثة على الوجه الذي سوف نُبيِّنه بالتفصيل في الفصل التالي.

obeikan.com

4

تأثرت حياة العامة في أسبانيا تأثرًا بالغًا بمهارة وعادات المغاربة الفاتحين حتى أن الحضارة الإسلامية كان لها وقْع على حياة الأسبان لا يُمكن محوَ أثره إلى الآن لدرجة أن دم المغاربة نفسه لا يزال يجري بنُبْلٍ في عروق الأسبان.

ولا يزال أثرَ حضارة المغاربة واضحًا حتى في موسيقى الأسبان اليوم فالشعور بالوجد وسرعة العزف وإيقاع الغناء أكثر مُجانَسة ومُماثلة للموسيقى العربية منه لنظيرتها الأوروبية، وعلاوة على هذا، فإن الجيتار والذي يُعزى إلى الأسبان أكثر من غيره من الأدوات الموسيقية لا يعدو عن كونه اختراعًا عربيًا:

«أصبحت الأغاني العربية أكثر شهرة في كل أرجاء شبه الجزيرة وذلك في الوقت الذي رحَّب فيه سكان البلاد المسيحيون بقصائد المسلمين من الشعر الغنائي، كما بزغ نجم الموسيقيين المسلمين في بلاط ملوك قشتالة وأراجون؛ وإضافة إلى هذا، فإن المطربين والراقصين المغاربة قد استمروا في تقيم فنونهم للسكان الأصليين

في كل من أسبانيا والبرتغال وذلك بعد سقوط غرناطة بزمنٍ بعيد. وتظهر الأبحاث التي قامت بها باحثة تُدعى ريبرا أن واقع الحال في القرن الثالث والقرون التي تلته يشير إلى أن الموسيقى المنتشرة في ربوع أسبانيا والجنوب الغربي لأوروبا من نوع الشعر الرومانسي الغنائي والتاريخي تعود في أصولها إلى الأندلس التي نقلتها عن العربية والتي أخذتها بدورها من الفارسية والتي اقتبستها قبلا من مصادر بيزينطية ويونانية[1].»

وفيما يتعلق بسكان أسبانيا الأصليين، فقد كانت هذه الفترة مليئة بالبهجة والسعادة إذ بمجرد أن استراحوا من عناء الحرب المسْتعِرة، فإنهم قد نعموا بدفء حضارة المغاربة المشرقة حيث تشربوا منها العلوم والفنون، وكانت حضارة المغاربة الفاتحين عن حقّ حضارة بهيجة حيث إنه لفترة من الزمان تشاطر كل سكان الأندلس من المسلمين والمسيحيين رغد الحياة البهيجة.

وتؤرخ هذه الفترة كذلك لذُرى المجد الذي وصلت إليه الحضارة اليهودية في أعقاب الشتات الذي أَلَمَّ باليهود جراء خروجهم من إسرائيل، حيث يميط التاريخ الأسباني اللثام عن الإسهامات الجليلة التي قام بها اليهود على أصعِدة الفكر الدينيّ والفلسفة والشعر والعلوم، وحظى اليهود بعيشةٍ مزدهرةٍ، جديرةٍ بالاحترام وبهيجة لدرجة أن ذاع صيت إنجازاتهم في كل أرجاء العواصم الأوروبية.

(١) فيليب حيتي- تاريخ العرب- ماكميلان

obeikan.com

5

لم يكن ثِمَّة سببٍ واضحٍ ملموسٍ أو نزاعٍ خطيرٍ نَشَب بين هذا المزيج من الأجناس المختلفة من المسيحيِّين واليهود والمسلمين والذين عجَّت بهم أراضي أسبانيا هو الذي تسبب في تقويض أركان هذه الحقبة السعيدة من الزمان، لقد كانت الطامَّة التي نزلت بالبلاد الأسبانية ذات طابع أيديولوجيٍّ في المقام الأول.

وكان الاتحاد الناجم عن زواج فرديناند، ملك أراجون، من إيزابيلا، ملكة قشتالة في عام 1469م هو بداية النهاية لحضارة المسلمين في الأندلس، حيث لم يكن ملوك الطوائف على قدر المسؤولية في هذه الحقبة التي نمَت فيها قوة المسيحيين من جديد حيث غزوا غرناطة في عام 1492م واتخذوها مركزًا لبسْط نفوذهم وسلطانهم على كل أرجاء أسبانيا.

وكانت الشرارة التي أضْرمت النار في صدور هولاء المحاربين الشجعان تحت قيادة فرديناند وإيزابيلا هي حماستهم الشديدة للدين، تمامًا كتلك التي أنارت الدرْب

للعرب من ذي قبل، إلى جانب أرواحهم الجَسورة التي قادتْهم في نهاية المطاف إلى غزو واستعمار أمريكا الجنوبية وتأسيس حضارة عظيمة للأسبان هناك.

وفي الوقت الذي كانت فيه شمس حضارتهم تشرق على العالم، شرع المسيحيون الفاتحون في طمس آثار تلك الحضارة العظيمة التي كان المسلمون قد أرسُوا قواعدها على أراضي أسبانيا، فقاموا، فضلاً عن ذلك، بإنشاء محاكم التفتيش، والتي كانت وسيلةً مفزعةً لنشر التعصب، كما شرعوا كذلك في إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية ومُنِعت الكتب العربية من التداول وحُرقت المخطوطات العربية في محارق عظيمة.

وفي عام 1556 م، سنّ فيليب الثاني قانونًا صارمًا يقضي بحظر المسلمين من ممارسة شعائرهم ويمنعهم من جريان العربية على ألسنتهم إضافة إلى حرمانهم من ممارسة عاداتهم في الحياة، وقد دُمِّرت الحمامات العامة والتي كانت تعم أرجاء المدن الأسبانية حيث المياه الوفيرة المتدفقة من الجبال المجاورة؛ تلك الحمامات التي كانت محببة إلى قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء، ومنذ ذلك الحين بدأ الشك يُساورهم بهرطقة أي مواطن أسباني يدفعه فرط حبه للاستحمام لدرجة أنهم كانوا يُحِيلونهم لمحاكم التفتيش.

وفي عام 1609م، وقَّع فيليب الثالث مرسومًا نهائيًّا بالطَّرد؛ وعليه فقد أَجبر كل المسلمين الذين كانت أقدامهم لاتزال تطأُ التراب الأسباني من مغادرة البلاد،

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أنه منذ سقوط غرناطة في عام 1492، فإن زهاء الثلاثة ملايين من المغاربة قد أُعدِم بعضهم في حين أن بعضهم الآخر قد أُحيل إلى المنفى أو أُجبر على مغادرة البلاد، وللحق فإن تلك السياسة التي انتهجها فيليب الثالث كانت مختلفة عن تلك التي أقرّها سلفه ألفونسو الثاني عشر، ملك قشتالة، والذي أظهر مناصرةً كريمةً وحانيةً على العلماء والفنانين المغاربة في القرن الثالث عشر.

لقد كان القرار الأخير بطرد المغاربة باسم المسيحية مأساة عرقية، إذ أنه حينما أبلغ رئيس الوزراء «لرما» -مدفوعًا بتحريض الكنيسة- الملك أن إحالة المغاربة المسلمين الذين أعتنقوا المسيحية قسرًا إلى المنفى قد أصبح أمرًا لامناص منه، أجاب الملك: «هذا حلٌّ عظيم، فليدخل حيز التنفيذ.»

يقول «باكل» في كتابه «تاريخ الحضارة»: «لقد نُفِّذ هذا القرار بوحشيةٍ مُجحفة حيث تم طرد زهاء المليون شخص من أشد سكان أسبانيا مثابرةً وجدًّا في العمل مثل الحيوانات البرية بدعوى أن إخلاصهم للمسيحية التي أجبروا على اعتناقها كان أمرًا مشكوكًا فيه، فتم ذبْح الكثيرين منهم بمقرُبة من الساحل في حين أن بعضهم قد ضُرب ونُهبت أمواله، وبَدَا الأمر بالنسبة للأكثرية منهم وكأنها رحلةً بائسة حيث رفع الملاحون على متن العديد من السفن شعار «اذبَحوا الرجال واغتصِبوا النساء وألقُوا بالأطفال في مياه البحر.»

ولم يلبث المسيحيون أن طَـرَدوا اليهود من أسبانيا بعد فترةٍ وجيزةٍ من طرد المغاربة في صورةٍ لا تقل مأساوية عن تلك التي كابدها اليهود عندما تم طردهم من فلسطين قبل قرون. وفتح العالم أبوابه على مصراعيها للمرة الثانية في التاريخ لـ «اليهود التائهين (فى الأرض).»

ولم تنهض الحضارة الإسلامية قطّ من هذه الضربة القاصمة فالمغرب التي أمَّها المغاربة فارين لم توفر البيئة المواتية لهذه الحضارة التي سبق وأن ازدهرت في ظلال أسبانيا عندما كانت تحت رايتهم، ومن ثم، فقد لجأّ المغاربة في بلاد المغرب إلى ممارسة القرصنة البحرية حيث أنهكوا التجارة الأوروبية في البحر المتوسط على مدار عدة قرون.

وإذا كان هذا الطمس الذي تعرضت له الحضارة الإسلامية كارثة نزلت بجانب المسلمين، فإنه أيضا لا يعدو كونه كارثة نزلت بجانب أسبانيا، حيث عانت الزراعة من فقدان جَسارة ومهارة المغاربة وتعرض نظام الري في البلاد للعطب فتحولت بذلك هذه الجنة ذات الأفنان إلى أرض شبه قاحلة ومُجدبة، وفضلاً عن ذلك، فقد فترت فنون العيش في البلاد وخفتت حياة المرح واللامبالاة والرغد التي كانت تميز حياة المغاربة الفاتحين في عُتمة محاكم التفتيش.

أما فيما يتعلق بالمناجم والتي كانت دائمًا مصدرَ ثراءٍ لأسبانيا، فإنها قد أضْحت مهجورة أو مُدارة بشكل غير فعال، وانحدرت صناعة الأقمشة بشكلٍ ملحوظٍ حيث

تقلص عدد أنْوال الغزل في أشبيلية التي كانت تُعد أكثر المدن ثراءً ليصل إلى 300 نول من أصل 16،000، أما طُلَيطلة، فإنها قد فقدت تقريبًا كل صناعتها من الأصواف وكذا صناعة الحرير التي كانت توفر العمل لنحو 40،000 ألف شخص، كما وصلت صناعة القفازات التي اشتهرت بها أسبانيا إلى طريقٍ مسدود، وعلاوة على هذا، فقد كَسَدت التجارة وانحدرت التجارة البحرية وصيد الأسماك حيث لم يكن الأسبان على القدر المطلوب من المهارة في الملاحة والإبحار.

وفي الحقيقة، فإن هذا التدهور الذي ألَمَّ باقتصاد أسبانيا نتيجة لطرد كل من المغاربة واليهود من البلاد كان بالغًا لدرجة أن خيَّم العوز والجوع على الكثير من المناطق في البلاد.

وفي كتابه «المغاربة في أسبانيا» يقول لاين بول «بعد طرد المغاربة من أسبانيا ظلت البلاد لفترة وجيزة يشع منها نور الحضارة الإسلامية، ثم غيّم الكسوف الذي درجت أسبانيا في ظلامه مذ ذلك الحين.»

obeikan.com